

الخميس 28-07-2011

1427-قراءة في كراسات التدريب



قراءة:
في كراسات التدريب
(نجيب محفوظ)

مقدمة:

لأول مرة أقدم قراءة لصفحة واحدة من كراسات التدريب على حلقتين، أنا لا أنكر أن ثمة أسبابا شخصية اضرتني لذلك، لكنني وجدتها فرصة جيدة لمزيد من الإتقان وربما مساحة أوسع للتداعي.

اقتصرت نشرة الأسبوع الماضي على الجزء الأول مما ورد بالصفحة وهو ما يتعلق بمسألة "الخماقة" وكيف أنها تستعصى على العلاج، وكيف يمكن أن تكون اختيارية مؤقتة فتثري الوجود الحقيقي كاملا بلا تناقض مع فضيلة "اللامخافة" والجدية.

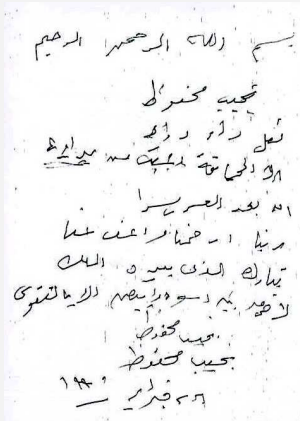
ننتقل اليوم إلى الجزء الثاني من التدريب الذي يبدأ انطلاقا من الآية الكريمة " إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرٌ "

النص صفحة "30"

بسم الله الرحمن الرحيم
نجيب محفوظ
لكل داء دواء
إلا الخماقة أعبت من يداويها

الجزء الثاني

ان بعد العسر يسرا
ربنا ارحمنا واعف عنا
تبارك الذي بيده الملك
فرق بين أسود وأبيض الا بالتقوى
نجيب محفوظ
نجيب محفوظ
26 فبراير 1995



القراءة (الجزء الثاني):

ان بعد العسر يسرا

ربنا ارحمنا واعف عنا

فضلت أن أعقب على الفقرتين الأولى والثانية معا؛ لم أنتبه ابتداء إلى أنه كتب "إن بعد العسر يسرا" وليس نص الآية الكريمة، "إنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا" وصلني أن هذه الآية الكريمة حضرت في وعيه كما جاءت في الأصل، لكنها حين خرجت إلى تدريباته، حلت "بعد" مكان "مع"، يا ترى لماذا؟

ثم إنه ثم أعقبها بهذه الدعوه الطيبة، "ربنا ارحمنا واعف عنا".

ابتداء لاحظت لأول مرة أن ثم فرق بين "بعد العسر" و"مع العسر"، ووصلني نص الآية أقرب إلى الآن، ورحت أتذكر حضور هذه الآية لي صغيرا فوجدتها كانت تأتيني "بعد" وليس "مع"، وتذكرت كيف كنت اتعمد أن أضغ نفسي (حوالي سن الحادية عشرة) في حالة مزاجية "عسيرة" تسمح لليقين من الآية أن يتحقق، فكنت لا أسح لنفسي بالفرح لبال الامتحان وأصر أن أفتعل العسر افتعالا لتصبح ليلة عسيرة يأتي بعدها اليسر، وتلاحظ أمي ذلك، وتصحني ألا أقلبها غمًا، وأنها سوف تدعولي بما يجعل كل أموري يسرا بإذن الله، ولا أصدق، وطبعًا لا يجوز تحابلي على ربنا وهو أملك الماكرين، وكذلك لم يحظر ببالي أن يكون "مع" العسر يسرا وليس "بعده" كما وصلني الآن،

موقف مواكبة اليسر للعسر (مع) هو موقف جدلي رائع يجعلنا نعيش العسر محتويا اليسر، وبالعكس، بما يعمق الوجود البشري، وأنا أعرف كيف أن شيخي قادر على ذلك، لكن هذا الإحلال لـ "بعد" مكان "مع" حضر في وعيه - ربما كما وصلني صغيرا- هو حقه الإنساني أيضا في ظروفه- ظروفنا-، الحالية خاصة.

مع قراءة الفقرة التالية مجمعة مع الآية الكريمة وصلني كيف أن عشم هذا العبد الراضى بقضاء الله هو أن يكون اليسر ليس فقط في تخفيف الألم وحفز الشفاء، وإنما أساسا في رحمته وعبوه سبحانه وتعالى.

"ربنا ارحمنا واعف عنا"

لا أريد أن اطيل مرة أخرى في وصفى علاقة شيخي بربنا، وطمعه في رحمته، وفرط حبه له، وحب ربنا أيضا لشيخنا، ذلك الحب الذي تحدثت عنه أكثر من مرة، مثلا: في تعقيبته على "تصريح فرنسوا متران" كما ذكرته في نشرة سابقة، ربما هنا في التدريبات، وربما في سلسلة "في شرف صحبة نجيب محفوظ" (متران) **(نشرة 1-14-2010 الحلقة السادسة في شرف صحبة نجيب محفوظ)**، وكنت كلما تحدثت في ذلك مع بعض الأصدقاء الذين يخافون أن يؤمنوا بإيمائه أو غير إيمائه، ويصرون أن يصفوه بالعلمانية (مدججا) وما شابه، كما يستعملونها وهو قد تحطى هذا وذاك من زمن بعيد، اعترضوا على رأي هذا واعتبروه إسقاطا آملا، على أحسن الفروض، (أو تزييفا على أسوأ الظن) ولم أكن أحاول

أن أذافع عن رأي أمام مثل هذه الاتهامات الطيبة، فهذا الرجل قد قربني من ربي بعشرته وإيمانه وكلمته وإبداعه، وليس فقط بالفاظه وصره وخشوعه وابتهاله، فكيف أرد عليهم .

إن بعد العسر يسر

العسر الذي نحن فيه معه هو عسر حقيقي يمرر حضور هذا المعنى أثناء تدريبه ونحن نطرق باب الأمل بقرب الفرج وانتظار اليسر، ونحن رجعت إلى الآيات الكريمة اكتشفت أنها الآيات التالية للآيات الكريمة نفسها وقد بدأت بحرف العطف فالنص القرآني الكريم يقول: " وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ" ثم يردف: "فَبِأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا"، وقد تعجبت كيف لم أخط من قبل أن الآيات الأولى لا الثانية هي التي تبدأ بحرف العطف الفاء "فَبِأَنَّ" " وفرحت بهذا الاكتشاف لست أدري لماذا، ربما لأن فاء العطف هذه جاءت بعد تعداد نعم الله سبحانه على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، ثم تأتي الآيات التي استوحاها تدريب الأستاذ للتأكيد والحسم، بدون عطف..!

طلب شيخنا الرحمة والعفو من ربنا كما رأيته منه دائما لم أخط أن فيه استجداء أو شعورا بالذنب بقدر ما شعرت فيه من العشم والثقة.

حضرت الآيات إلى كما اعتدنا وهي تمثل قمة جيل الوعي [1] فأقرأ معها: " فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ " وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ " ولا أتوقف عند تفسير المجتهدين لكن يحدثن كل هذا بما أنتمى إليه من علاقة "نبض الوعي البشرى" "بجتمية الإيقاع الحيوى أساسا لمنظومة الوجود عامة"، "والوجود البشرى خاصة"،

يصلني القرآن الكريم باعتباره "وعيا خالصا"، إذ هو يمثل لدى نحن الإيقاع الحيوى الذى يقوم بالوصل بين الوعي البشرى بالوعي الكوني، ربما لذلك هو يصل للطفل والشيخ والأمى والعربى والأعجمى معا بلا حاجة لفحص معاني ألفاظه، والذي يقرأ كثيرا من أعمال محفوظ لابد ان يصله بعض صدى هذا الإيقاع أو مثل هذا الإيقاع، وقد كان هذا الإيقاع قد تجلجلى لى أكثر ما تجلجلى فى "ملحمة الخرافيش" حتى أسيت نقدى لها "دورات الحياة... " شارحا كيف استوعب هذا النص ما هو إيقاع حيوى كأروع ما يمكن أن يوصف به، فتصلني الآن الآيات، " فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ " فى هذا السياق للإيقاع الحيوى ربطا بإيقاع نبض الكون ودوراته كما تربطنا به أداء الصلاة فى أوقاتها فى الإسلام خاصة، مع استمرار رفضي لما سُمى التفسير العلمى للقرآن بكل حسم كما ذكرت فى عدة مناسبات سابقة. حضور القرآن الكريم كوعى خالص هو الذى يسمح "بالاستلهام" "والرؤية" (المعرفة) "الموازية"، دون ترجمة أية منظومة معرفيه إلى غيرها.

هذا التراوح بين " فَارَغْتَ " و " فَانصَبْ " الذى يلحقه، " وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ "، هو اللحن الذى يدعو المجتهد للكبح نحوه والانضمام إليه، حين يصلني أن الإيقاع الحيوى حين ينضبط يتوجه راغبا إلى ربنا تعالى.

بالتالي، واتباعا لنفس منهج "قمة جبل الوعى" (الذى شرحته حالا في الهامش) حضرتني الآية التالية وهى مرتبطة تماما بما بعدها " تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ"، تذكرت نقدي للمحمة الخرافيش وكيف أنها ملحمة الموت والتخلق حيث لاحظت أنها قدمت الموت باعتباره هو الأصل وأن الحياة لاحقة له، هذا هو ما بدأ به محفوظ فكرته المحورية في الملحمة من أول سطورها حين يبدأها هكذا:

"في ظلمة الفجر العاشقة، في الممر العابر بين الموت والحياة... [2] فأضيف في نقدي: "... وليس بين الولادة والموت" فالموت هو الأصل، والحياة احتمال قائم، هذه الحقيقة هى سداة الملحمة ولبانتها.."

ثم إن محفوظ راح ينسج الملحمة تعلمنا دورات الحياة، وتنبهنا إلى ضلال أوهام الخلود في هذه الدنيا، ولم يحظر على بالي هذا الترتيب وتقديم ترتيب خلق الموت على الحياة إلا هنا، الآن.

"تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا".

هل هذا هو ما استوحاه إبداع محفوظ في الملحمة دون قصد.

لست متأكدا، ولكن ما أدراي؟

ثم يختم محفوظ تدريبه اليوم بأنه "لا فرق بين أسود وأبيض إلا بالتقوى"، ولم أحتج أن أرجع إلى الحديث الشريف أنه "لا فرق بين عربي ولا أعجمي إلا بالتقوى"، ولكنني استقبل تحديث محفوظ لفكرة التفرقة العنصرية بسبب اللون (وهي الأكثر شيوعا حاليا)، دون قصد غالبا، فيصلى أن التقوى، وليس مجرد حقوق الإنسان المكتوبة، هى محك التمييز الأساسى الذى ينفى التمييز على أساس اللون كمثال.

حين انتخب أوباما رئيسا واعتبرناها نقلة نوعية في تاريخ التفرقة العنصرية بسبب لونه الذى بهت في نظري الآن حتى أصبح يمثل "القهوة باللبن" أكثر مما يمثل أفريقيا الأصل، ثم تبين أوباما على حقيقته حين راح يستعمل تحيب الأفاعى ليحقق أسوأ ما في التفرقة ليس بسبب اللون ولكن بسبب المال، كرهته حتى شطح خيالي ليوهمني في لحظة عابرة أنه غير لونه قصدا مثل الخبراء ليحقق أسوأ ما يحققه منافق.

المهم تحفيفا لهذا الغم، حضرني تصالح حقيقى رائع في قصيدة صلاح جاهين "إفريقية" في ديوانه "عن القمر والطين"، أختم بها قراءتى وأنا أعلم كيف سوف تحضر في وعى محفوظ الآن، مع تكرار أن صلاح كان حرفوشا أصليا، وهأنذا أختم قراءتى بمقتطفات جميلة منها، فيها من الأمل والسماح ما يليق بحضور هذا الوعى الكريم في تدريبات الأستاذ اليوم:

من قصيدة "إفريقية"

(1)

"كلام الرجل الأبيض"

أبيض ، وفنطازييه
ومراتي المظينه
وربنا اصطفاننا ،
عشان حُمره قفاننا ،
وشيلنا الأمانة ،
اللي تُقل الرزيّة .

(2)

"كلام الرجل الأسود"

أسود ، ودمي حامي ،
حامي الحمي يا حامي ،
مافيناش لونكم ولوننا ،
الكون ده كله كوننا ،
ماما مذيهاولنا...
ومشهده الحمامي .

(3)

"كلام الرجل الحمامي"

حمامي كبير قانونجي ،
وفي الكلام بيرنجي
شايب وشكلي رائع ،
فاهم كل الشرائع ..
لابيض - وده رأى شائع -
أبيض ، والزنجي زنجي

(4)

"كلام الولد الأبيض"

والله "الجلاس" ما أدوقه ،
يا الزنجي ينول حقوقه!
تلميذ ، وباستهجي ،
لكن في الرأي .. حُجه ،
العالم بده رجّه ،
عشان تمسح فروقه!

(5)

"كلام الرجل الأفريقي"

يا ليل .. والبدر .. بمبي ..
يا ليل .. وألم في جنبي ..
يا ليل .. مقدرش انام بو ..
يا ليل .. و "لومومبا" قام بو ..
يا ليل .. أنا سجنى بامبو ،
وان ماكشرتوش .. ده ذنبي!

.....
.....

وهكذا يعلمنا أحد الخرافيش - صلاح جاهين - مسئولية أن نستقل وأن نكسر نحن التميز والتبعية والدونية ولا ننتظر ذلك حتى من أوباما أو غير أوباما.